طَرِيقَةُ الدِّينِ
فِي سَتْرِ عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ

إعداد:

عبد الرحمن ناصر المبحوح

مؤسسة «والذاكرين»

فلسطين _ غزة

1443هـ _ 2021م

الطبعة الثانية _ مزيدة ومنقحة

تَقْرِيـظٌ

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد:
فهذا كتاب الستر للأخ الحبيب الأستاذ: عبد الرحمن المبحوح حفظه الله تعالى.

طلب مني قراءته فقرأته فوجدتُ عبارته سهلة واضحة، وأسلوبه ماتعا سهلا لا غموض فيه.

ذكر الكاتب فيه كثيرا من الأدلة من القرآن والسنة وأقوال العلماء، وأورد الكثير من الفوائد النافعة، والأحكام الواضحة؛ فجاء الكتاب سهلا دقيقا ماتعا نافعا.

فجزى الله أخانا خير الجزاء، وأسأله سبحانه أن ينفع الطلاب والتلاميذ بهذا الكتاب، وهو حري أن يقرأه طالب العلم لينتفع به.

وأرجو من الله أن يوفقه إلى الاستمرار في خدمة الدين، راجيا من الله تعالى أن يحشره مع العلماء العاملين وأن يغفر له ولنا أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الشيخ: عبد الباري بن محمد خلة

الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ والسَّلَامُ الأَتَمَّانِ الأَكْمَلَانِ عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ أَجْمَعِينَ، وَعَلَىٰ سَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ، وَعَلَىٰ آلِهِ، وَصَحْبِهِ نُجُومِ الْمُهْتَدِينَ، وَرُجُومِ المُعْتَدِينَ، وَعَن تَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْدُ:

فَإِنَّ اللهَ ﷻ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّتْرَ، وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَتَبَ مِنْ فَوْقِ عَلْيَائِهِ أَنَّ مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا فِي الدُّنْيَا سَتَرَهُ فِي الْآخِرَةِ، يَوْمَ تُبْلَىٰ الْسَّرَائِرُ، وَتَتَكَشَّفُ الْخَبِيئَاتُ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ وَفَزَعَتِهَا الرَّهِيبَةِ، الَّتِي تُقْرَعُ القُلُوبُ مِنْ هَوْلِهَا، وَيُخْزَىٰ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيْرٌ، لِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، [الشعراء:٨٧]، وَلَقَدْ أَتَتِ الْأَخْبَارُ المُرَغِّبَةُ بِكَرَمِ اللهِ ﷻ

فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ لِمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، وَسَعَىٰ فِي حِفْظِ عِرْضِهِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»، (رَوَاهُ مُسْلِمٌ)، وَقَد تَوَارَدَتْ وَتَكَاثَرَتِ النُّصُوصُ بِمِثْلِ هَذَا المَعْنَىٰ؛ فَقَدْ خَرَّجَ ابْنُ مَاجَه مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ؛ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ؛ كَشَفَ اللهُ عَوْرَتَهُ حَتَّىٰ يَفْضَحَهُ بِهَا فِي بَيْتِهِ»، (رَوَاهُ ابنُ مَاجَه، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ)، وَهَذِهِ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَحَاسِنِ هَذَا الدِّينِ: سَتْرُ المَعَاصِي وَالذُّنُوبِ الَّتِي تَحْصُلُ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَعَدَمُ تَتَبُّعِ عَوْرَاتِهِمْ وَكَشْفِهَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ الإِسْلَامِيَّةَ تَتَشَوَّفُ إِلَىٰ السِّتْرِ، وتَتَطَلَّعُ إِلَىٰ إِخْفَاءِ الزَّلَّاتِ، وَكِتْمَانِ العُيُوبِ، حَتَّىٰ لَا يَفْسُدَ النَّاسُ، وَيُحْفَظَ عَلَيْهِمْ دِينُهُمْ، قَالَ مُعَاوِيَةُ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّكَ إِنِ

اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ»، (رواه أبو داود، وصححه النووي، والألباني)، وَلِعِظَمِ حُرْمَةِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَيْضًا، فَقَدْ نَظَرَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَوْمًا إِلَىٰ الْكَعْبَةِ؛ فَقَالَ: «مَا أَعْظَمَكِ، وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ»، (رواه الترمذي، وصححه الألباني)، فَشَرَفُ الكَعْبَةِ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَظِيْمٌ، وَقَدْرُهَا كَبِيرٌ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْهَا وَهِيَ قِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَقُطْبُ رَحَاهُمُ الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ صَلَاحُ يَوْمِ الدِّينِ، فَعَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يُعَظِّمَ حُرْمَةَ اللهِ الَّتِي حَرَّمَ، وَأَنْ يَسْتُرَ أَخَاهُ إِذَا وَقَعَ فِي الزَّلَلِ أو الخَطَأِ، وَيَنْصَحَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

السَّتْرُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ المُتَّقِين:

لَقَدْ جَبَلَ اللهُ ﷻ الخَلْقَ عَلَىٰ حُبِّ السِّتْرِ، بَلْ جَعَلَ السَّتْرَ صِفَةً فِعْلِيَّةً مِنْ صِفَاتِهِ ﷻ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ»، (رواه النَّسائي، وصححه الألباني)، وَ(سِتِّيرٌ): عَلَىٰ وَزْنِ (فِعِّيل) بِمَعْنَىٰ (فَاعِل): أَيْ مِنْ شَأْنِهِ وَإِرَادَتِهِ حُبُّ السَّتْرِ وَالصَّوْنِ، مَعْنَىٰ ذَلِكَ: كَمَا قَالَ السندي رَحِمَهُ اللهُ: «أَيْ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ تَارِكٌ لِلْقَبَائِحِ، سَاتِرٌ لِلْعُيُوبِ وَالْفَضَائِح، يُحِبّ الْحَيَاء وَالسَّتْر مِنْ الْعَبْد» (شرح النسائي للسندي).

فَيَنْبَغِي عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّادِقِينَ؛ أَنْ يَتَحَلَّوا بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ العَظِيْمَتَيْنِ، وَهُمَا: الحَيَاءِ وَالسَّتْرِ.

فَاللهُ ﷻ يُحِبُّ السِّتْرَ سَوَاءً كَانَ السِّتْرَ الحِسِّيَّ..، المُتَعَلِّقَ بِالأَجْسَادِ، أَو السِّتْرَ المَعْنَوِيَّ..، المُتَعَلِّقَ بِأَحْوَالِ العِبَادِ،

وَإِنَّ صَالِحِي كُلِّ زَمَانٍ اهْتَدَوْا بِهَدْيِ اللهِ، وَتَرَسَّمُوا شَرْعَ اللهِ، وَتَلَبَّسُوا بِمَحْبُوبِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَانْبَرَىٰ الْمُتَّقُونَ مِنْهُمْ فِي سَتْرِ الْعُيُوبِ وَالعَوْرَاتِ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبُهُمْ وَعَادَتُهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمُ الْيَقِين، ويقحمهم منازل الآخرة، إِذْ إِنَّ هَذِهِ الْخَصْلَةَ عَلَامَةٌ عَلَىٰ صِحَّةِ البِدَايَةِ، وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَىٰ صَفَاءِ النِّهَايَةِ، وَسَتْرُ العُيُوبِ وَالعَوْرَاتِ شِعَارُ عِبَادِ اللهِ المُفْلِحِينَ، وَهُوَ مِعْرَاجُ المُحْسِنِينَ لِلْقُربِ مِنْ إِلَهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَلَا يَخْلُو إِنْسَانٌ مِنَ الوُقُوعِ فِي الذَّنْبِ وَالزَّلَلِ، فَإِذَا رَأَىٰ المُسْلِمُ شَيْئًا مِنْ أَخِيهِ المُسْلِمِ سَتَرَهُ، وَاعْتَذَرَ لَهُ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ مِنْ ذَوِي الهَيْئَاتِ، مَا لَمْ يَكُنْ دَاعِيًا بِهَا، مُمْتَهِنًا لَهَا، وَهُوَ بِهَذَا السِّتْرِ يَتَحَقَّقُ لَهُ سِتْرُ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَعَنْ عِكْرِمَةَ، أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخَذَ سَارِقًا ثُمَّ قَالَ: «أَسْتُرُهُ لَعَلَّ اللهَ يَسْتُرُنِي»، (مصنف عبد الرزاق الصنعاني).

فَهَذَا أَمْرٌ مَنْدُوبٌ شَرْعًا، بَلْ لَابُدَ أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي قَرَارَةِ قَلْبِكَ أَنَّ اللهَ لَكَ كَمَا أَنْتَ لِعِبَادِهِ.

فَضْلُ مَنْ سَتَرَ مُسْلِماً:

إِنَّ سِتْرَ الْمُسْلِمِ لِعَوْرَةِ أَخِيهِ مِنْ أَجَلِّ الطَّاعَاتِ، وَأَفْضَلِ الْقُرُبَاتِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمِنْ أَحْسَنِ العِبَادَاتِ الَّتِي رَحِمَ اللهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَهِيَ عِصْمَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَحِمَايَةٌ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ بِالْغَيْبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ»، (رواه أحمد، وصححه الألباني)، فَجَائِزَةُ مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ بَعْدَ سِتْرِ اللهِ أَنْ اللهَ يَكُفَّ عَنْ وَجْهِهِ النَّار، قَالَ العَلَاءُ بْنُ بَدْرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «لَا يُعَذِّبُ اللهُ قَوْمًا يَسْتُرُونَ الذُّنُوبَ»، (مكارم الأخلاق، للخرائطي)، وَهَذِهِ الفَضَائِلُ وَالمَنَاقِبُ الطَّيِّبَاتُ الْمُبَارَكَاتُ لَيْسَتْ فِي سَتْرِ الأَحْيَاءِ فَحَسْب، بَلْ تَنْجَرُّ لِمَنْ سَتَرَ مَيِّتًا؛ فعَنْ أَبِي رَافِعٍ رضي الله عنه مَولَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، حَدَّثَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ

قَالَ: «مَنْ غَسَّلَ مُسْلِمًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، وَمَنْ حَفَرَ لَهُ فَأَجَنَّهُ [أَيْ: أَخْفَاهُ وَوَارَاهُ بِالدَّفْنِ فِي القَبْرِ، وَسَتْرِهِ بِالتُّرَابِ]، أَجْرَىٰ عَلَيْهِ كَأَجْرِ مَسْكَنٍ أَسْكَنَهُ إِيَّاهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَفَّنَهُ كَسَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقِ الْجَنَّةِ»، (رواه الحاكم، والبيهقي، وصححه ابن حجر، والألباني، وقد رواه الطبراني، بلفظ: (أربعين كبيرة)) وَكَذَلِكَ مَنْ سَتَرَ عَبْدًا مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ كَمَا وَعَدَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، (رواه مسلم، وغيره) وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ حَمَىٰ مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، بَعَثَ اللهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»، رواه أبو داود، وحسنه الألباني)، فَالمُوَفَّقُ مَنْ يَسْعَىٰ فِي حِمَايَةِ سِيرَةِ المُؤْمِنِينَ مِنْ أَلْسِنَةِ المُنَافِقِينَ، وَيَنْصُرُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ عِرْضَهم، حَتَىٰ يَتَحَقَّقَ نَصْرُ اللهِ لَهُ، إِذْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَصَرَ أَخَاهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ؛ نَصَرَهُ اللهُ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»، (رواه البيهقي، وحسنه الألباني)، بَلْ إِنَّ نُصْرَةَ الأَخِ المُسْلِمِ بِظَهْرِ الغَيْبِ وَالذَّبِّ عَنْ عِرْضِهِ حَيَاةٌ لَهُ: «مَنْ رَأَىٰ عَوْرَةً فَسَتَرَهَا كَمَنْ أَحْيَا مَوْءُودَةً»، (رواه أبو داود، وصححه المناوي، وحسنه الأرناؤوط)، وَجَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَطْفَأَ عَنْ مُؤْمِنٍ سَيِّئَةً، فَكَأَنَّمَا أَحْيَا مَوْءُودَةً»، وَلَمَّا جِيءَ بِمَاعِزٍ ﷺ وَكَانَ قَدْ زَنَىٰ، يُرِيدُ إِقَامَةَ الحَدِّ عَلَيْهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَنْ جَاءَ بِهِ: «لَو سَتَرْتَهُ بِثَوبِكَ» (رواه أحمد، وصححه الألباني)، «وإِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ؛ حُبًّا لِإِخْفَاءِ الفَضِيحَةِ، وَكَرَاهِيَةً لِإِشَاعَتِهَا»، (النهاية، لابن الأثير).

إِشَاعَةُ الفَاحِشَةِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ تُوجِبُ عُقُوبَةَ اللهِ:

إِنَّ إِظْهَارَ عُيُوبِ النَّاسِ، وَتَتَبُّعِ عَوْرَاتِهِمْ وَمَحَبَّةِ إِشَاعَةِ الفَاحِشَةِ بَيْنَهُمْ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ الَّتِي يُعَجَّلُ لِصَاحِبِهَا العُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، [النور: ١٩]، قَالَ ابنُ كَثِيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَذَا تَأْدِيْبٌ لِمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنَ الكَلَامِ السَّيِءِ؛ فَقَامَ بِذِهْنِهِ أَوْ عَقْلِهِ شَيْءٌ مِنْهُ وَتَكَلَّمَ بِهِ..، فَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الكَلَامِ عَنِ المُؤْمِنِينَ بِالقَبِيحِ»، (تفسير ابن كثير، بتصرف)، وَيُؤْذُونَهُمْ فِي إِرْسَالِ أَلْسِنَتِهِمْ بِالْقَدْحِ فِي سُمْعَتِهِم، فَيَهْتِكُونَ سَتْرَ اللهِ ﷻ المُرْخَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ أَذِيَّةَ المُؤْمِنِينَ وَفَضِيْحَتُهُمْ تُوجِبُ العُقُوبَةَ؛ فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي

مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يِخْمِشونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورهُمْ؛ فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيل؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»، (رواه أبو داود، وصححه الألباني)، وَعَنْ جَابِر بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَارْتَفَعَتْ رِيحُ جِيفَة مُنْتِنَة، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا هِذِهِ الرِّيح، هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ الْمُؤْمِنِينَ»، (رواه أحمد، وحسنه الألباني، والأرناؤوط)، وَاقْرَأْ هَذَا الحَدِيْثِ مُتَعَقِّلًا مُتَدَبِّرًا، عَلَّهُ يَزْجُرُكَ وَيَرْدَعُكَ إِنْ كَانَ لَكَ قَلْبٌ شَهِيدٌ، فَعَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ شَجَرَةَ الرَّهَاوِيِّ رضي الله عنه، قَالَ خَطَبَنَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «إِنَّ لِجَهَنَّمَ سَاحِلًا كَسَاحِلِ الْبَحْرِ فِيهِ هَوَامُّ وَحَيَّاتٌ كَالْبُخْتِ [كالإبل]، وَعَقَارِبُ كَالبِغَالِ الدُّهْمِ، فَإِذَا اسْتَغَاثَ أَهْلُ النَّارِ، قَالُوا: السَّاحِلَ، فَإِذَا أُلْقُوا فِيهَا سُلِّطَتْ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْهَوَامُّ؛ فَتَأْخُذُ شِفَارَ أَعْيُنِهِم وَشِفَاهَهُمْ، وَمَا شَاءَ اللهُ مِنْهُمْ يَكْشِطُهَا كَشْطًا،

فَيَقُولُونَ: النَّارَ النَّارَ، فَإِذَا أُلْقُوا فِيهَا سُلِّطَ عَلَيْهِمُ الجَرَبُ، فَيَحُكُّ أَحَدُهُمْ جَسَدَهُ حَتَّىٰ يَبْدُوَ عَظْمُهُ، وَإِنَّ جِلْدَ أَحَدِهِمْ لَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، قَالَ يُقَال: يَا فلانُ، هَلْ تَجِدُ هَذَا يُؤْذِيكَ، فَيَقُولُ: وَأَيُّ أَذًىٰ أَشَدُّ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: يُقَالُ هَذَا بِمَا كُنْتَ تُؤذي الْمُؤْمِنِينَ» (رواه الحاكم، والبيهقي، وابن المبارك في الزهد، والسمرقندي في تنبيه الغافلين، والقرطبي في التذكرة، وقال الألباني: صحيح موقوف)، وَأَيُّ إِيْذَاءٍ أَكْبَرُ مِنْ تَتَبُّعِ عَوْرَاتِ النَّاسِ، وَالبَحْثِ عَنْ سَوْءاتِهِمْ، وَالتَجَسُّسِ عَلَيْهِمْ، وَإِظْهَارِ مَا سَتَرَهُ اللهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَايِبِهِمْ؟ وَكُلُّنَا يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ اليَوْمَ مِنْ إِظْهَارِ عُيُوبِ المُسْلِمِينَ فِي مَوَاقِعِ الإِنْتَرْنِتّ، وَعَبْرَ الجَوَّالَاتِ، وَمِنْ خِلَالِ الجَلَسَاتِ، وَكَثِيرًا مِمَّا يُنْشَرُ غَيْرَ صَحِيحٍ، أَلَا حَيَاءً مِنْ اللهِ! إِذْ إِنَّ هَذَا مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ التي تُجْتَرَحُ فِي جَنْبِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ الَّتِي يُشَدِّدُ عَلَىٰ صَاحِبِهَا العَذَابُ الأَلِيمُ فِي الآخِرَةِ، كَمَا جَاءَ من حديث مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ

الْجُهَنِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ رَمَىٰ مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللهُ عَلَىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»، (رواه أبو داود، وحسنه الألباني)، وفي رواية «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ؛ أَسْكَنَهُ اللهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ» (رواه أبو داود، وصححه الألباني)، وَعند الطَّبَرَانِيِّ زَادَ: «رَدْغَةُ الخَبَالِ هِيَ: عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ»، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾، [الأحزاب: ٥٨]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أَيْ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بُرَآءُ مِنْهُ لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ، يَحْكُونَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ذَلِكَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنَقُّصِ مِنْهُمْ»، فعَنْ سَعْيد بْنِ زَيدٍ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَرْبَىٰ الرِّبَا الاسْتِطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ»، (رواه أبو داود، وصححه الألباني)، وَفِي رِوَايَةٍ: قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ فِيهِا: «أَرْبَىٰ الرِّبَا عِنْدَ اللهِ اسْتِحْلَالَ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ثُمَّ قَرَأَ:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾، (رواه أبو يعلى، وصححه المنذري، وحسنه السيوطي)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «إِنَّ الْبَغْيَ لَيُدْرِكُ صَاحِبَهُ، وَلَوْ بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً»، وقَالَ السَّمَرْقَنْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الذُّنُوبِ أَعْظَمَ مِنَ الْبُهْتَانِ» (تنبيه الغافلين، للسمرقندي)؛ «لِأَنَّ هَذَا وَمَا شَاكَلَهُ وَضَاهَاهُ مِنْ حُقُوقِ الآدَمِيِّينَ، يَنْتَقِمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الظَّلَمَةِ لِلْمَظْلُومِينَ وَيَأْخُذُ بِهِم»، (الإمامة، لأبي نُعَيْم، بتصرف).

فَاعِلُ الفَاحِشَةِ، وَالَّذِي يُشِيعُهَا، فِي الْإِثْمِ سَوَاءٌ:

إِنَّ مَنْ أَشَاعَ الفَاحِشَةَ وَتَكَلَّمَ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَنَقَلَ مَا يُؤْذِيهِمْ، احْتَمَلَ مِنَ الآثَامِ المُبِينَةِ وَالذُّنُوبِ الكَبِيرَةِ كَمَنْ فَعَلَهَا، فَعَنْ شُبَيْلِ بْنِ عَوْفٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «مَنْ سَمِعَ بِفَاحِشَةٍ، فَأَفْشَاهَا، كَانَ فِيهَا كَالَّذِي بَدَأَهَا»، (رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني)، وقَالَ الْفُضَيْلُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ سَمِعَ بِفَاحِشَةٍ، فَأَفْشَاهَا، كَانَ كَمَنْ أَتَاهَا» أَيْ يُكْتَبُ لَهُ وِزْرًا كَالَّذِي فَعَلَهَا، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، [النحل: ٢٥]، فَلْيَنْتَبِهِ الْمُسْلِمُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الذُّنُوبِ الكَبِيرَةِ، وَالأَوزَارِ العَظِيمَةِ وَهُوَ لَمْ يَفْعَلْهَا أَصْلًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ

آثَامِهِمْ شَيْئًا» (رواه مسلم)، وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: «لِلَّذِي يَعْمَلُ الْفَاحِشَةَ، وَالَّذِي يَشِيعُهَا، لَمَنْزِلَةٌ وَاحِدَةٌ»، وَقَالَ ﷺ: «الْقَائِلُ الْفَاحِشَةَ، وَالَّذِي يُشِيعُ بِهَا، فِي الْإِثْمِ سَوَاءٌ»، (رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني)، لِذَلِكَ مِنَ الخَيْرِ أَلَا يَنْقِلَ المَرْءُ بَيْنَ النَّاسِ السَّوْءَ، وَلَا يُشِيعُهُ بَيْنَهُمْ، وَمَنْ حَمَلَ مَقَالَةَ السَّوْءِ عَنْ إِخْوَانِهِ وَانْتَقَصَهُمْ وَلَمَزَهُمْ فَوَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ.

الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ:

لَقَدْ حَثَّنَا الإِسْلَامُ عَلَىٰ السِّتْرِ؛ فَلَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ المَسْتُورِينَ وَيَكْشِفَهَا، فَإِنَّهُ بِفِعْلِهِ هَذَا يَتَعَرَّضُ لِسَخَطِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيُوشِكُ أَنْ يُعَاقِبَهُ اللهُ بِمِثْلِ صَنِيعِهِ فِي أَخِيهِ المُسْلِمِ، فَإِنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرَ؛ فَنَادَىٰ بِصَوْتٍ رَفِيعٍ؛ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ» (رواه الترمذي، وصححه الألباني)، «فَاسْتُرْ إِخْوَانَكَ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَكَ بِحَرْبِ اللهِ ﷻ، القَادِرِ عَلَىٰ كَشْفِ عُيُوبِكَ، وَفَضْحِ ذُنُوبِكَ، الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا النَّاسُ عَنْكَ، وَزُمَّ هَذَا اللِّسَانَ بِزِمَامِ التَّقْوَىٰ، وَأَلْجِمْهُ

عَنِ الخَوْضِ فِي الأَعْرَاضِ، وَتَتَبُّعِ العَوْرَاتِ، وِإفْسَادِ صِيتِ إِخْوَانِكَ، وَإِسَاءَةِ سُمْعَتِهِمْ» (هذه أخلاقنا، لمحمود الخزندار، بتصرف)، إِذْ إِنَّ المُسْلِمِينَ لَهُمْ حُرْمَةُ السِّتْرِ، وَبِمِقْدَارِ سَتْرِ المَرْءِ لِمَعَايِبِ النَّاسِ يَكُونُ سَتْرُ اللهِ ﷻ لِمَعَايِبِهِ، وَعَلَىٰ هَذَا يُفْهَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ أَعْلَىٰ اللهُ قَدْرَهُمْ إِنَّمَا أَوْقَعَهُمُ اللهُ عَلَىٰ مَعَايِبِ النَّاسِ، فَسَتَرُوهَا فَسَتَرَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمْ مَعَايِبَهُمْ، وَمَا عَادَتْ تَبْدُو لِلنَّاسِ ظَاهِرَةً، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تَسَلَّطُوا عَلَىٰ أَخْطَاءِ النَّاسِ وَعَوْرَاتِهِمْ سَلَّطَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمْ غَيْرَهُمْ، قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: يَقُولُ أَحَدُ العُلَمَاءِ: «وَجَدْتُ أُنَاسًا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ ذُنُوبٌ وَلَا عُيُوبٌ، فَبَحَثُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ؛ فَأَبْدَىٰ اللهُ عُيُوبَهُمْ لِلنَّاسِ، وَكَانَ هَنَاكَ أُنَاسٌ لَهُمْ عُيُوبٌ وَذُنُوبٌ، سَتَرُوا النَّاسَ؛ فَسَتَرَ اللهُ عُيُوبَهُمْ وَذُنُوبَهُمْ» (جامع العلوم والحكم، لابن رجب)، وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ:

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا

فَيَهْتِكَ اللهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا

وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا

وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَا

قَالَ الحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ رَمَىٰ أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ؛ لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَبْتَلِيَهُ اللهُ بِهِ» (الصمت؛ لابن أبي الدنيا).

وَقِيلَ لِلرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا نَرَاكَ تَعِيبُ أَحَدًا وَلا تَذُمُّهُ؛ فَقَالَ: مَا أَنَا عَلَىٰ نَفْسِي بِرَاضٍ فَأَتَفَرَّغَ مِنْ عَيْبِهَا إِلىٰ غَيْرِهَا»، (حلية الأولياء، لأبي نعيم)، وَفِي الحَقِيقَةِ العَيَّابُونَ هُمُ المَعْيُوبُونَ، فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَطَايَا أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِخَطَايَا النَّاسِ»، وَأَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

أَجْرَأُ خَلْقِ اللهِ فِي المَغِيْبِ

عَلَىٰ عُيُوبِ النَّاسِ ذُو العُيُوبِ

المُؤْمِنُ يَسْتُرُ وَيَنْصَحُ، وَالفَاجِرُ يَهْتِكُ وَيَفْضَحُ:

إِنَّ الإِنْسَانَ المُسْلِمَ مِنْ طَبِيعَتِهِ أَنَّهُ كَتُومٌ، وَيَسْتُرُ مَا يَرَاهُ مِنَ العُيُوبِ، وَيَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ؛ لِيَكْثُرَ بَيْنَ النَّاسِ الخَيْرُ، وَيَقِلَّ بَيْنَهُمُ الشَّرُّ، فَإِنَّ ظُهُورَ المَعَاصِي عَيْبٌ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَمَثْلَبَةٌ فِي البُنْيَانِ، فَالعِفَّةَ العِفَّةَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَنْ أَعْرَاضِ المُسْلِمِينَ، مَعْ البُعْدِ عَنْهَا، وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مَا أَمْكَنَ، وَحَمْلَ الشَّيْءِ عَلَىٰ أَحْسَنِ مَحَامِلِهِ، فَلَا تَرَىٰ المُؤْمِنَ إِلَّا حَافِظًا لِلِسَانِهِ، تَصِلُهُ المَعَايِبُ وَالمَثَالِبُ فِي المُسْلِمِينَ فَيَخْزِنُهَا وَيَكْتُمُهَا وَلَا يُفْشِيهَا قَاصِدًا بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، فَإِنَّ الفَاحِشَةَ تَشِيعُ بَيْنَ النَّاسِ فَتَقِفُ عِنْدَ الصَّالِحِينَ وَتُدْفَنُ، فَلَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا خَيْرًا، وَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا بِرًّا، قَالَ الْفُضَيْلُ رَحِمَهُ اللهُ: «الْمُؤْمِنُ يَسْتُرُ وَيَنْصَحُ، وَالْفَاجِرُ يَهْتِكُ وَيُعَيِّرُ» (جامع العلوم والحكم، لابن رجب).

وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ الْفَاحِشَةَ لَتَشِيعُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتْ

إِلَىٰ الصَّالِحِينَ كَانُوا خُزَّانَهَا» (التوبيخ والتنبيه، لأبي الشيخ الأصبهاني)؛ وَاتِسَاقًا لِمَا سَبَقَ نَذْكُرُ مِنْ هَذِهِ المَعْانِي مَا وَرَدَ مِنْ أَخْبَارِ الأَنْبِيَاءِ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ:

** فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رَأَىٰ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ رَجُلاً يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، فَقَالَ عِيسَىٰ: آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي» (رواه البخاري).

** وَهَذَا إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرَىٰ الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ فِيهِ إِلَّا مَخَافَةَ أَنْ أُبْتَلَىٰ بِمِثْلِهِ» (شُعب الايمان، للبيهقي).

** عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِالْكَرِيمِ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ: «مَنْ رَأَيْتَهُ يَطْلُبُ الْعَثَرَاتِ عَلَىٰ النَّاسِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَعْيُوبٌ، وَمَنْ ذَكَرَ عَوْرَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ هَتَكَ سِتْرَ اللهِ الْمُرْخَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ» (التوبيخ والتنبيه، للأصبهاني).

** وَقَالَ أَبُو عَاصِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يَذْكُرُ فِي النَّاسِ مَا يَكْرَهُونَهُ إِلَّا سَفَلَةٌ لَا دِينَ لَهُ»، (الآداب الشرعية، ابن مفلح).

** وَكَانَ وُهَيْبُ بْنُ الوَرْد رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «وَاللهِ لَتَرْكُ الغِيبَةِ عِنْدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ التَّصَدُّقِ بِجَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ»، (التوبيخ والتنبيه، للأصبهاني).

** وقَالَ الفُضَيْلُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا حَجَّ وَلَا جِهَادَ وَلَا رِبَاطَ أَفْضَلَ مِنْ حِفْظِ اللِّسَانِ»، (رواه ابن أبي الدنيا، وأبو نعيم في الحلية).

** وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ بَهَّاتُونَ، عَيَّابُونَ، فَاحْذَرُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَشْرَارُ الْخَلْقِ، لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ نُورُ الْإِسْلَامِ، وَهُمْ أَشْرَارٌ، لَا يَرْتَفِعُ لَهُمْ إِلَىٰ اللهِ عَمَلٌ»، (التوبيخ والتنبيه، للأصبهاني).

** قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِيَّاكَ وَالْغِيبَةَ، إِيَّاكَ وَالْوُقُوعَ فِي النَّاسِ، فَيَهْلِكَ دِينُكَ» وكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولُ: «لَأَنْ أَرْمِيَ رَجُلًا

بِسَهْمٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرْمِيَهُ بِلِسَانِي؛ لأَنَّ رَمْيَ اللِّسَانِ لَا يُخْطِئُ»، (التوبيخ والتنبيه، للأصبهاني).

** وَعَنِ ابْنِ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا رَأَىٰ مِنْ أَخِيهِ مَا يَكرَهُ؛ أَمَرَهُ فِي سِتْرٍ، وَنَهَاهُ فِي سِتْرٍ، فَيُؤْجَرُ فَي سِتْرِهِ، وَيُؤْجَرُ فِي نَهْيِهِ، فَأَمَّا اليَوْمَ إِذَا رَأَىٰ أَحَدٌ مِنْ أَحَدٍ مَا يَكْرَهُ؛ اسْتَغْضَبَ أَخَاهُ، وَهَتَكَ سِتْرَهُ»، (روضة العقلاء، لابن حبان).

فَالمُؤْمِنُ يَسْتُرُ وَيَنْصَحُ، وَالفَاجِرُ يَهْتِكُ وَيَفْضَحُ، وَالمُؤْمِنُ نَاصِحٌ أَمِيْنٌ، وَالمُنَافِقُ خَائِنٌ ذَمِيْمٌ، فَلْتَخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَصِيْلَ الرَّأْيِ، وَ يَا رَزِيْنَ العَقْلِ.

حُبُّ الخَيْرِ لِلْغَيرِ كَمَالُ إيمَانٍ:

إِنَّ مِنَ الخِصَالِ الحَمِيدَةِ، وَالخِلَالِ الكَرِيمَةِ الَتِي يَتَلَبَّسُ بِهَا الْمُؤْمِنُ: أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ المُسْلِمِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الخَيْرِ، فَعَلَىٰ كُلِّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَىٰ كَمَالِ الإِيْمَانِ وَيَتَطَلَّعُ لَهُ، أَنَ يَضَعَ نَفَسَهُ مَكَانَ أَخِيهِ الَّذِي أَخْطَأَ أَوْ زَلَّ، أَيُحِبُّ سَاعَتَهَا أَنْ يُفْضَحَ وَيُعَيَّرَ وَيُهْتَكَ سِتْرُهُ، أَمْ يُحِبُّ لِنَفْسِهِ أَنْ يَبْقَىٰ عَلَيْهِ سِتْرُ اللهِ، وَتُقَالَ عَثْرَتُهُ، وَيُغَضَّ النَّظَرُ عَنْ عَوْرَتِهِ؟ فَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَعَمَّارًا وَالزُّبَيْرَ ﷺ أَخَذُوا سَارِقًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ؛ فَقَالَ عِكْرِمَةُ لِابْنِ عَبَاسٍ: «بِئْسَمَا صَنَعْتُمْ حِينَ خَلَّيْتُمْ سَبِيلَهُ، فَقَالَ: لا أُمَّ لَكَ، أَمَا لَوْ كُنْتَ أَنْتَ لَسَرَّكَ أَنْ يُخَلَّىٰ سَبِيلُكَ»، (رواه ابن أبي شيبة، وصححه ابن حجر)، فَلَنْ تَبْلُغَ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ وَكَمَالَهُ حَتَّىٰ تُحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ مَا نَصَّ عَلَيْهِ حَدِيْثُ النَّبِيِّ ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»

(متفق عليه)، وَقَدْ تَرَبَّى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عَلَىٰ مَعِينِ النُّبُوَّةِ الصَّافِي، فَخَرَجَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صَفَاءِ قَرِيحَتِهِ، وَنَقَاءِ سَرِيرَتِهِ حِينَ قَالَ ﷺ: «لَوْ لَمْ أَجِدْ لِلسَّارِقِ وَالزَّانِي وَشَارِبِ الْخَمْرِ إِلَّا ثَوْبِي؛ لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْتُرَهُ عَلَيْهِ»، (مصنف عبد الرزاق الصنعاني)، وَقَالَ ﷺ: «لَوْ أَخَذْتُ سَارِقًا لَأَحْبَبْتُ أَنْ يَسْتُرَهُ اللهُ ﷻ، وَلَوْ أَخَذْتُ شَارِبًا لَأَحْبَبْتُ أَنْ يَسْتُرَهُ اللهُ ﷻ»، (الطبقات الكبرى، لابن سعد، وصححه ابن حجر)، وَعَنِ الشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّ رَجُلًا، أَتَىٰ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: إِنَّ ابْنَةً لِي وُئِدَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنِّي اسْتَخْرَجْتُهَا فَأَسْلَمَتْ، فَأَصَابَتْ حَدًّا، فَعَمَدَتْ إِلَىٰ الشَّفْرَةِ فَذَبَحَتْ نَفْسَهَا، فَأَدْرَكْتُهَا وَقَدْ قَطَعَتْ بَعْضَ أَوْدَاجِهَا فَدَاوَيْتُهَا فَبَرَأَتْ، ثُمَّ إِنَّهَا نَسَكَتْ فَأَقْبَلَتْ عَلَىٰ الْقُرْآنِ فَهِيَ تُخْطَبُ إِلَيَّ فَأُخْبِرُ مِنْ شَأْنِهَا بِالَّذِي كَانَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «تَعْمَدُ إِلَىٰ سَتْرٍ سَتَرَهُ اللهُ فَتَكْشِفَهُ؟ لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ ذَكَرْتَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهَا لَأَجْعَلَنَّكَ نَكَالًا لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ بَلْ أُنْكِحُهَا نِكَاحَ

الْعَفِيفَةِ الْمُسْلِمَةِ»، (مسند الحارث)، وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ، «أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، دُعِيَ إِلَىٰ قَوْمٍ كَانُوا عَلَىٰ أَمْرٍ قَبِيحٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَوَجَدَهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا وَرَأَىٰ أَثَرًا قَبِيحًا، فَحَمِدَ اللهَ إِذْ لَمْ يُصَادِفْهُمْ، وَأَعْتَقَ رَقَبَةً»، (حلية الأولياء، لأبي نعيم، ومصنف عبد الرزاق الصنعاني)، وَأُتِيَ بِرَجُلٍ لِابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقِيلَ: «هَذَا فَلَانٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا، فَقَالَ: «إِنَّا قَدْ نُهِينَا، عَنِ التَّجَسُّسِ، وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ»، (رواه أبو داود، وصححه الألباني)، فَلَا تَجِدُهُم بِهَذَا يَشْمَتُون بِأَحَدٍ وَلَا يَحْتَقِرُون أَحَدًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»، (رواه مسلم، وغيره).

وَقَدْ وَصَلَنَا مِنْ كَلَامِ مَشَايِخِنَا بَارَكَ اللهُ فِي حَسَنَاتِهِمْ: أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُسِيءُ الظَّنَّ، وَلَا يُحْسِنُ العَيْبَ، وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَىٰ أَحْسَنِ المَحَامِلِ: فَإِنْ وَجَدَ رَائِحَةً لِفَمِ أَخِيهِ؛ قَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ صِيَامِهِ، وَإِنْ رَأَىٰ قَذَاةً فِي عَيْنِهِ؛ قَالَ: هَذَا أَثَرُ دَوَاءٍ يُدَاوِي

بِهِ عَيْنَهُ، وإِنْ رَأَىٰ رَثَاثَةً فِي ثِيَابِهِ؛ قَالَ: هَذَا تَوَاضُعٌ يَتَوَاضَعُهُ لِرَبِّهِ ﷻ؛ يُدَاوِي بِهِ نَفْسَهُ.. وَهَذِهِ وَصِيَّةُ الْزَمْهَا تَجِدْ حَلَاوَةً فِي قَلْبِكَ، وَرَاحَةً فِي صَدْرِكَ، وَصَفَاءً فِي سَرِيرَتِكَ، فَالمُؤْمِنُ المَحْبُوبُ عِنْدَ اللهِ، الَّذِي إِنْ رَأَىٰ عَوْرَةً مِنْ أَخِيهِ كُشِفَتْ سَتَرَهَا وَأَمَرَهُ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، فَإِن لَمْ يَنْطِقْ خَيْرًا؛ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ عَوْرَتِهِ؛ وسَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، (متفق عليه)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»، (متفق عليه).

حصائد الألسنة:

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: «لِسَانُ الإِنْسَانِ قَلَمُ الْمَلَكِ، وَرِيْقُهُ مِدَادُهُ»، (الصمت، لابن أبي الدنيا)، وَكُلُّ مَا يُسَجِّلُهُ المَلَكُ سَيَقِفُ المُرْءُ فِي القِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تُرْجُمَانٍ، وَيُحَاسَبُ وَيُؤَخَذُ عَلَيْهِ، قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُون بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوْهِهِم -أَو: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِم- إِلاَّ حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِم؟!»، (رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني).

وَجَاءَ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِها سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ»، (رواه البخاري)، وَقَالَ ﷺ: «أَكْثَرُ خَطَايَا ابنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»، (رواه الطبراني، وصححه الألباني)، وقَالَ ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ لِسَانَهُ»، (رواه الطبراني، وحسنه الألباني)، وقَالَ

أيضاً: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»، (رواه أحمد، وصححه الألباني)، وَسَأَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﷺ رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةِ؟ قَالَ ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيْئَتِكَ»، (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن)، وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قُولُوا خَيْراً تَغْنَمُوا، وَاسْكُتُوا عَنْ شَرٍّ تَسْلَمُوا»، (مسند الشهاب، وصححه الألباني)، وَجاء عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَىٰ طُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ»، (رواه الطبراني، وصححه الألباني)، «اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيْعِ الكَلَامِ إِلَا كَلَامًا تَظْهَرُ المَصْلَحَةُ فِيْهِ، وَمَتَىٰ اسْتَوَىٰ الكَلَامُ وَتَرْكَهُ فِي المَصْلَحَةِ فَالسُّنَّةُ الإِمْسَاكُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَنْجَرُّ الْكَلَامُ الْمُبَاحُ إِلَىٰ حَرَامٍ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي الْعَادَةِ وَكَثِيرٌ، أَوْ غَالِبٌ فِي العَادَةِ، وَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيءٌ»، (شرح صحيح مسلم، للنووي، بتصرف)، لَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ»، (رواه البخاريّ، ومسلم)، وَهَذَا مُوَرِّق الْعِجلِي رَحِمَهُ اللهُ كَانَ يَقُولُ: «أَمْرٌ أَنَا فِي طَلَبِهِ مُنْذُ عَشْر سِنِين لَمْ أَقْدِر عَلَيهِ وَلَسْتُ بِتَارِكٍ طَلَبَهُ أَبَداً»، قَالَوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْمُعْتَمر؟ قَالَ: «الصَّمْتُ عَمَّا لاَ يَعْنِينِي»، (مصنف ابن أبي شيبة)، «وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهُونُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ وَالِاحْتِرَازُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ وَالظُّلْمِ وَالزِّنَىٰ وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَمِنَ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ، حَتَّىٰ تَرَىٰ الرَّجُلَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَنْزِلُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَكَمْ تَرَىٰ مِنْ رَجُلٍ مُتَوَرِّعٍ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ، وَلِسَانُهُ يَفْرِي فِي أَعْرَاضِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، وَلَا يُبَالِي مَا يَقُولُ» (الجواب الكافي)

*** لَفْتَةٌ مِنْ شَفِيقٍ مُحِبٍّ ***

عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَأْخُذَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ؛ وَأَنْ يَضَعَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ أَمَامَ عَيْنَهَ، وَقِبَالَةَ قَلْبِهِ، وَيَمْشِي فِي صِرَاطِ اللهِ عَلَىٰ الوَجْهِ الذي يُرْضِي رَبَّهُ، وَيَمْضِي فِي عَهْدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَنْ يَسْتَقِيْمَ عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي أَرَادَ إِلَىٰ يَوْمِ لِقَاءِهِ ﷻ، وَأَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَعِصْيَانِهِ، وَيَثْبُتَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمَرْضَاتِهِ؛ وَإِلَّا فَوَاللهِ لَيُورِدَنَّ نَفْسَهُ المَوَارِدَ الَّتِي لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهَا، لِأَنَّهُ سَلَكَ المَسْلَكَ الوَخِيمَ، وَالطَّرِيْقَ الخَطِيْرَ، وَالشَّرَ المُسْتَطِيْرَ، فِي تَجَرُّئِهِ عَلَىٰ هَتْكِ سِتْرَ اللهِ، وَلِيَحْذَرْ أَنْ يَكُونَ سَيِّءَ الظَّنِّ؛ فَسُوءُ الظَّنِّ عَوَاقِبُهُ وَخِيمَةٌ، وَهُوَ بَرِيدٌ لِتَقَحُّمِ أَعْرَاضِ المُسْلِمِينَ وَالتَّجَرُّؤِ عَلِيْهَا، وَإِنْ دَلَّ عَلَىٰ شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَىٰ خُبْثٍ فِي النَّفْسِ، وَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ خَبِيثَ النَّفْسِ -عِيَاذًا بِاللهِ- خَبِيثَ القَلْبِ؛ دَخَلَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ بِقَدْرِ خُبْثِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ

التَّعَرُّضِ لِأَعْرَاضِ المُسْلِمِينَ، مُتَتَبِّعًا عَوْرَاتِهِمْ، فَلَا تَجِدُ النَّفْسَ المَرِيْضَةَ إِلَّا شَغُوفَةً بِسَمَاعِ العُيُوبِ، وَتَتَبُّعِ السَّقَطَاتِ، تَحْشُدُ هِمَّتَهَا فِي تَصَيُّدِ العَثَرَاتِ وَالهَفَوَاتِ، وَتَصَدُّرِ المَجَالِسِ فِي تَجْرِيحِ ذَوِي الهَيْئَاتِ، مَعَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ بِالتَّجَاوُزِ عَنْ عَثَرَاتِهِمْ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ بانَتْ عَوْرَتُهُ، وَظَهَرَتْ سَوْءَتُهُ؛ واكتوىٰ بنار ما كان يفعل، جَزَاءً وِفَاقًا، وَهَذَا مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا، وَلَمَا ينتَظِرُهُ فِي الآخِرَةِ -إِنْ لَمْ يَتُبْ- أَشَدُّ وَأَكْبَرُ وَأَنْكَىٰ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [سورة النور: ٢٣_٢٥]

فَلَقَدْ فَصَّلَ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ تَفْصِيلًا، وَلَنْ يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا وَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّةُ اللهِ، وَلَنْ يَتَكَلَّمَ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ

وَاحِدَةٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَّا سَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ يُسْأَلُ عَنْ هَذِهِ الكَلِمَة، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، [ق: ١٨]، فَوَيْلٌ لِمَنْ تَكَلَّمَ فِي النَّاسِ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيِّ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَقَدْ جَاءَتْهُ الحُجَجُ الدَّامِغَةُ الَّتِي أَقَامَهَا اللهُ عَلَيْهِ، وَأَشْهَدَ مَلَائِكَتَهَ بِأَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغَتْهُ أَنْ يَسْتُرَ أَخَاهُ المُسْلِم، فَلَمْ يَسْتُرْهُ، وَفَضَحَهَ وَنَسِيَ أَنَّ جَمِيعَ مَا يَنْطِقُ بِهِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ، مَسْؤُولٌ عَنْهُ، فَالأَمْرُ عَلَىٰ التَّحْقِيقِ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، [المجادلة: ٦]، يَمْضِي الْمَرْءُ قُدُمًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَتَمُرُّ عَلَيْهِ السَّنَوَاتُ الطِّوَالُ وَيَنْسَىٰ ذُنُوبَهَ وَمَعَاصِيَهِ، وَيَنْسَىٰ تَهَتُّكَهُ بِأَعْرَاضِ المُسْلِمِينَ، وَكَشْفَهُ السِّتْرَ عَنْهُمْ، وَغِيبَتَهُمْ، وَالنَّمِيمَةَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهَا كُلَّهَا عِنْدَ اللهِ مَحْصِيَّةٌ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، وَتُوزَنُ فِي مِيزَانِ اللهِ الَّذِي تَبِينُ فِيهِ مِثْقَالُ الذَّرَّةِ؛ وَإِنَّ أَقْوَالَ الإِنْسَانِ وَأَفْعَالَهُ، كَبِيرَهَا

وَصَغِيرَهَا مُدَوَّنَةٌ عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، [الزُّخْرُف: ٨٠]، فَلَا يَصْدُرُ عَنِ الإِنْسَانِ لَفْظٌ أَوْ كَلِمَةٌ إِلاَّ وَلَدَيهِ مَلَكٌ حَاضِرٌ مَعَهُ، مُرَاقِبٌ لِأَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ يُثْبِتُهَا فِي صَحِيفَتِهِ، وَيُسْأَلُ المَرْءُ عَنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَيُذَكَّرُ بِهَا، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الآثَامِ، وَالكَبَائِرِ العِظَامِ؟! فَالمُسْلِمُ العَاقِلُ الحَصِيف مَنْ يُنَزِّهُ قَلْبَهُ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ بِالمُسْلِمِينَ أولا، وَالقَدْحِ فِيهِمْ ثانيا، وَيَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ سِرِّهِ وَنَجْوَاهُ، مُرَاقِبٌ لَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، فَهُوَ اسْتَيْقَنَ أَنَّ اللهَ مُرَاقِبُهُ وَنَاظِرُهُ وَمُحَاسِبُهُ، وَمَلَائِكَةُ رَبِّهِ تَشْهَدُهُ، فَأَقْبَلَ بِقَلْبِهِ عَلَىٰ خَالِقِهِ بَعْدَمَا اسْتَقَرَ النَّدَمُ فِي أَحْشَاءِ قَلْبِهِ وَعَادَ إِلَيْهِ عَوْدًا أَحْمَدَ، وَرَتَقَ الفَتْقَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ رَاجِعًا بِكُلِّيَّتِهِ إِلَىٰ خَالِقِهِ تَائِبًا صَادِقًا مُخْبِتًا مُتَضَرِّعًا مُتَذَلِّلًا مُتَبَذِّلًا، فَاللهُ بِكَرَمِهِ وَمَنِّهِ يَجْبُرُ كَسْرَ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ، وَيُقِيْلُ عَثْرَتَهُ، وَيَغْسِلُ حَوبَتَهُ، وَيَغْفِرُ ذَنْبَهُ وَلَوْ كَانَ

مَا كَانَ مِنْ الذُّنُوبِ، إِلَا مَا كَانَ مِنْ حُقُوقِ الآدَمِيِّينَ فَهَذَا يَسْتَوجِبُ رَدَّ الحَقِّ لِأَهْلِهِ حَتَىٰ يَتَحَقَقَ لَهُ قَبُولَ التوبَةِ، وَالحَقُ إِنْ كَانَ مَادِّيًا يَجْتَهِدُ الإِنْسَانُ فِي رَدِّهِ جُهْدَهُ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ رُوحُهُ، فَلَا يَأْمَنُ حَيَاتَهُ لَحْظَةً وَاحِدَةً، كَذَلِكَ إِن كَانَ الحَقُ مَعْنَوِيًّا مِثْلَ الغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ يُكَثِّرُ مِنَ الاسْتِغْفَارِ وَالدُّعَاءِ لِمَنْ لَهُ حَقٌ عَلَيهِ، وَيَذْكُرُهُ بِخَيْرٍ وَيَتَصَدَّقُ عَنْهُ، عَلَّ اللهَ _تَعَالَىٰ_ أَنْ يَتُوبَ عَلَيهِ، فَاللهُ كَرِيْمٌ وَالأَمَلُ فِيهِ كَبِيرٌ، وَوَاللهِ الذِّي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سُواهُ، لَو غُمِسَ العَبْدُ فِي الذُّنُوبِ مِنْ أَخْمَصِ قَدَمِهِ إِلَىٰ شَعْرَةِ رَأْسِهِ وَنَادَىٰ رَبَّهَ صَادِقًا لَيَغْفِرَنَّ لَهُ الغَفُور، بَلْ لَوْ حَمَلَ العَبْدُ ذُنُوبَ الدُّنْيَا كُلَهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرَهَا وَنَصَبَ وَجْهَهَ لِمَنْ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَلِلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ بَسَطَ يَدَهُ بِاللَيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيْءُ النَّهَارِ وَأَقْبَلَ عَلَىٰ رَبِّهِ رَاغِبًا تَائِبًا مُنِيْبًا إِلَيهِ، لَغَفَرَ اللهُ لَهُ ذَنْبَهَ وَلَا يُبَالِي، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

«قَالَ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»، (أخرجه أحمد، والترمذي وحسنه، وصححه الألباني).

وَأما الغَافِلُ فِي هَذه الحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي سَدَرَ فِي غَيِّهِ، وَأَهْمَلَ نَظَرَ خَالِقِهِ، وَاسْتَرْسَلَ فِي بُعْدِهِ عَنْ رَبِّهِ؛ جَرَّاءَ تَهَتُّكِهِ سِتَارَ اللهِ الَّذِي أَسْدَلَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَمَا رَاقَبَ اللهَ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ هَذَا الْمُتَقَحِّمُ لِحُرُمَاتِ اللهِ، أَنْ يُعَاجِلَهُ اللهُ ﷻ بِعُقُوبَةٍ قَاصِمَةٍ، لَا يُبَالِي اللهُ بِهِ فِي أَيِّ أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا هَلَكَ؛ إِزَاءَ كَشْفِهِ لِعَوْرَاتِ عِبَادِهِ المُدِينِينَ لَهُ بِالوَحْدَانِيَّةِ، وَالمُقِرِّينَ لَهُ بِالأُلُوهِيَّةِ.

نَسْأَلُ اللهَ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ، وَعَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ، أَنْ يَتُوبَ عَلَيْنَا، وَأَنْ يَسْتُرَ عُيُوبَنَا وَيُحَسِّنَ أَخلَاقَنَا، ويَضْبِطَ سُلُوكَنَا، وَيُقَوِّمَ أَلْسِنَتَنَا، ويُخْرِسَهَا عَنِ البَاطِلِ، وأن يجملنا بالستر، وَأَنْ يُسَلِّمَنَا، وَيُسَلِّمَ المؤْمِنِينَ مِنَّا، وَيُصْلِحَ فَسَادَ قُلُوبِنَا، وَيَرْزُقَنَا قُلُوبًا مَخْمُومَةً رَحِيمَةً بِعِبَادِهِ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ، وَالقَادِرُ عَلَيْهِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى آلِهِ، وَسَائِرِ النَّبِيِّينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

مؤسسة «والذاكرين»